المشاهدات الطبية من أبقراط الى الرازي

بقلم الدكتور
فيصل دبدوب
الموصل ــ محافظة نينوى ــ العراق

ان فجر العلم لاح منذ عشرة آلاف سنة أو أكثر ، ولم يلح ذلك الفجر في كل مكان بدرجة واحدة من الاصالة والسطوع ، بل سبقت بعض الاقوام غيرها في التكامل والنمو ، فالطبابة مثلاً كانت من أوائل المهن التي احترفها الانسان ، لحاجة الناس الملحة الى ما يحفظ عليهم صحتهم ويدفع عنهم الامراض ، والطب الحديث لم يصل الى ما وصل اليه من رقي وتقدم الا بتظافر جهود مضنية من شعوب كثيرة منذ آلاف السنين والى اليوم ، وفي الحق انه من وجهة النظر العلمية يمكن أن يعتبر النوع البشري كله بمثابة انسان واحد أي بمثابة عملاق فريد تزداد معرفته وتتراكم خبراته بتوءدة خلال العصور .

الطب قبل تدوين المشاهدات :

ان من الواضح اننا اذا أردنا ان نستقصي تاريخ الطب وتأريخ تدوين وثائقه ، علينا أن نبدأ كما لو نبدأ بتدوين سيرة أي علم من أعلام التأريخ ، فنركز انتباهنا على العناصر الاساسية الارتقائية في سيرته ، فاذا كان الامر كذلك ، وجب علينا أن نبحث في الطب المصري والطب البابلي حيث انهما سبقا الطب اليوناني من وجهة النظر الزمنية ، وأن نلقي نظرة عجلى على ما كان عليه الطب قبل نشوء الحضارات .

ان الطب والدين كانا من أوائل الامور التي اهتم الانسان بمعرفتها فحاول الوصول الى حقيقتها بما كان يملكه من وسائل وذلك قبل خروجه من طور الهمجية الى طور الاستقرار النسبي . فكانت العناصر الطبيعية القاهرة تدفعه الى تخيل وجود آلهة يستعين بها لصد تأثير هذه العناصر ، كما كانت تدفعه غريزة حب البقاء والمحافظة على سلامة الذات الانسانية والعطف على المتألمين من ذويه الى التدرج في صناعة الطب . فتخيل قيام آلهة للخير وآلهة للشر توجه القوى الطبيعية التي تتحكم في الولادة والحياة والالم والموت . ورأى تجاه ما أوصلته اليه مخيلته أن لابد من استرضاء الآلهة . ومن هذه الفكرة نشأت فكرة الاحجبة والرقي والتمائم وما الى ذلك، وكانت الوسيلة الطبية الاساسية للانسان في مكافحة الامراض والسيطرة عليها لقهرها . ومازالت هذه الوسائل معتبرة عند الملايين من الناس لا في مجاهل أفريقيا فحسب بل حتى في أرقى البلدان ، فتجدهم يهرعون الى العرّاف والكاهن أو قاريء الكف وضارب الرمل ، والى أمثال هؤلاء من أصحاب الشعوذات ، ولا يهرعون الى تلامذة أبقراط والرازي وابن سينا .

لقد تلا تدرج الانسان في طريق التحضر ظهور مدنيات في الصين والهند ومصر وبلاد الرافدين ، أما معلوماتنا عن الطب الصيني فقليلة، وأما الطب الهندي فقد كان متأثرا بالطب الصيني مع ابتكارات من الاطباء الهنود حيث برعوا في الجراحة رغم أن علم التشريح كان ناقصا عندهم ، ولا تزال عمليتهم لترقيع الانف تجرى حتى اليوم . وقد عرفوا الكثير من خصائص الادوية والسموم ، وغير معروف عندنا ما اذا كانت معارفهم أثّرت على الطب اليوناني أو تأثرت به . ولكن من الثابت أنهم مزجوا الكهانة والسحر بالعلوم الطبية ، ولا نعلم درجة هذا المزج ، وقد انتقلت بعض المعارف الطبية الهندية الى الوطن العربي عن طريق التعريب وذلك في أوائل العصر العباسي .

اما في مصر فقد كان الطب متقدما ، وقد رفع اطباء وادي النيل وكهنته الطبيب « أمحوتب » الى مصاف الآلهة وجعلوه ربّ الشفاء من الامراض ، واشادوا الهياكل لتكريمه وتخليد ذكراه . وقد حملت عملية التحنيط المصريين الى العناية بالكيمياء والتشريح . وكلمة كيمياء نفسها مشتقة من لفظة (كيمي) ومعناها (الارض السوداء) وهو الاسم الذي كانت تعرف به مصر قديما . وقد استعمل المصريون المقيئات والمسهلات والمعرّقات ومدرات البول . ولقد أشار « هوميروس »(١) Homéros الى براعتهم في الكيمياء والمطهرات ، وهم الذين انشأوا التخصص في فروع الطب فآثر بعضهم طب العيون وغيرهم الجراحة وبعضهم الامراض الباطنية وهكذا ، وفي مصر نشأ (الطبيب الكاهن) .

ان ما ذكرناه عن الطب المصري يجب ان لا يجعلنا ننظر اليه على أنه يمثل الاسلوب العلمي الصحيح ، فالطب المصري لا يخلو من خرافة وسحر وكهانة ، وهذا ما دعا الى القول بنشوء (الطبيب الكاهن) في وادي النيل . ففي بردية « سميث » مثلا التي اكتشفت في الاقصر عام (١٨٦١ م) واشتراها الاثري الامريكي « ادون سميث Edwin Smith » وكذا بردية « ايبرز » التي اكتشفها (ايبرز) نفسه في الاقصر والتي تحتوي على أسماء الادوية التي كانت شائعة في زمن تدوينها في العصور الفرعونية، أقول بان فيهما بعض الخرافة والسحر رغم الافكار الطبية العالية التي احتوتهما البرديتان ، فالباحث يقع فيهما على علوم تشريحية وفسيولوجية ودوائية لها من القيمة العلمية والاثرية الشيء الكثير . ففي بردية سميث مثلا نجد أوليات التشريح ، وبداءة الفن الطبي ، وربما كانت هذه الرسالة قد اقتربت ــ وأقول اقتربت فقط ــ من مبدأ العلم الحقيقي .

أما الطب البابلي فانه كان يختلف عن الطب المصري ، فالتعليم الطبي البابلي كان شفهيا ، وكانت مدوناتهم الطبية على الالواح من قبيل المذكرات ، وكانوا يلجأون الى عرض مرضاهم في الساحات العمومية ليصف لهم الدواء كل من أصيب أو كل من سمع بمرضهم وقد حفظ الكهنة تلك الوصفات ودونوها في سجلات الهياكل فكانت من أوائل المدونات التي وصلتنا في هذا الخصوص . والبابليون أول من صاهر بين التنجيم والطب ، فحسبوا للكواكب والابراج الفلكية أثرها الفعال في الولادة ووظائف الاعضاء ، والامراض أسبابها وعلاجها ، وعنهم أخذ العرب التنجيم ونقلوه الى أوربا ، ولقد انشأ البابليون « علم الكبد » اذ اعتقدوا بأن الكبد يسيطر على سائر أعضاء الجسم، وقد كانوا يعتزون ويفتخرون بكونهم يستنطقون أكباد الاغنام عندما يطلبون المعرفة أو يستدعون الوحي والالهام .

والآن بعد هذه اللمحات التأريخية التي مرت امامنا سريعا يحق للقاريء أن يسأل هل ترك كل من الطب الفرعوني والطب البابلي وثائق طبية فيها مشاهدات سريرية ؟ فأقول انه لا ، اذ لا يوجد فيما اطلعت عليه من كتب وأبحاث ما يشير الى وجود مدونات طبية سريرية للمصريين القدماء أو للبابليين تمت الى العلم الحديث بصلة ، وذلك من حيث الخضوع الى قواعده وطرق البحث فيه ليس غير . فعلى هذا الاساس يجب أن لا نطيل الوقوف والتأمل في الطب الفرعوني والطب البابلي ولنستحث السير الى أثينا ، الى الطب اليوناني علّنا نجد هناك ما يروي ظمأنا في هذا المجال .

أبقراط والمشاهدات السريرية :

ان أول مدون للمشاهدات السريرية بأسلوب علمي خال من الخرافة والوهم هو أبقراط(٢) المولود في جزيرة (قوص(٣)) حوالي عام (٤٦٠ قبل الميلاد) والمتوفي عام (٣٧٧ ق.م) .

ينتسب أبقراط Hippocrate الى اسرة ذات شهرة واسعة في الطب اليوناني الاسكلبيوسي نسبة الى « اسكلبيوس » Sclepios الذي كان طبيبا عظيما احتل الابوة في الطب اليوناني وحتى الالوهية ، وذلك قبل أبقراط ، وقد اعتبر اسكلبيوس الاها وشيدت له الهياكل مثل غيره من آلهة اليونان . وجد ابقراط ويدعى أيضا أبقراط

(١) هوميروس : شاعر ملحمي يوناني ، قيل أنه كان أعمى ، نسب اليه المؤلفون اليونانيون أشعار « الاليــاذة » و «الاوذيسة » و «الاغاني الهوميرية » التي أثرت تأثيرا عميقا على مستقبل الشعر اليوناني . وقد اصبحت أشعاره موضوع دراسة للفلاسفة والمربين والناقدين خلال الاجيال ، وهوميروس من ابناء القرن التاسع قبل الميلاد .

(٢) انظر كتاب تأريخ الطب للدكتور موفق الشطي . السفر الاول . ص ٢٥ . طبع دمشق .

(٣) (قوص) جزيرة تابعة لليونان .

مارس الطب ، ووالده مارس الطب كذلك ، وكان معلمه الاول واسمه هيروقليدس Heroclides من الاطباء المشهود لهم بالكفاءة . وخلف ابقراط ولداه « تسالوس Thessalos » و « دراكون Dracon » وصهره بوليبوس(٤) القوصي . وكان هذا الاخير أبرز خلفاء أبقراط .

لقد كان أبقراط من عظماء الرجال في العالم بشهادة « أرسطو » في كتابه السياسة Politica ، فبالرغم من قلة وسائل العلاج الفنية المتوفرة لديه فقد أدخل أساليب البحث العلمي على الطب وارتقى به لدرجة أصبح الاول من نوعه في اليونان ان لم يكن في العالم أجمع كما يقول سارطون .

ان مزية عبقرية ابقراط العلمية تتجلى في ملاحظاته الدقيقة وأفكاره المعتدلة وحبّه للحق ورفضه للخزعبلات والاباطيل . فهو السابق الى انشاء الادب الطبّي ، وأول من وضع الوثائق السريرية .

لقد جمع ابقراط ودون الحالات السريرية في كتابه الاوبئة Epidemics ، في الجزئين الاول والثالث ، وعدد المشاهدات التي دونها اثنان وأربعون ، انتهت خمس وعشرون منها بالموت ، فترك لنا فيها صورا طبية لداء السل والتشنج النفاسي وداء الصرع ، وسجل ملامح المحتضر والميت ، ووجه من أهزله الجوع وأعياه الاسهال ، ولاتزال هذه المظاهر تعرف بالوجوه الابقراطيه Focios Heppocratica ، وهناك ما يعرف بالاصابع الابقراطية — وهي اعراض خاصة ببعض الامراض خاصة أمراض القلب والرئة المزمنة اذ تتضخم مفاصل الاطراف Hippocratic Fingers

ومن الصور السريرية التي تركها لنا أبقراط وصفه لتنفس تشين ستوك Cheyne Stokes نسبة الى طبيبين من دبلن (جان تشين) (١٧٧٧— ١٨٢٦م) و (وليم ستوك) (١٨٠٤ — ١٨٧٨ م)كما يعرف لدى طلبة الطب بالنبض المتحول .

قال أبقراط « ان زوجة دلرسيس في (تاسوس) الزمها المرض الفراش وترك بها مكروها فأصابتها حمى عنيفة صاحبتها رعشة شديدة وكانت من أول الامر تلتف جملة ثم تأخذ دون أن تنبس ببنت شفة بتحسس الاشياء وتعبث بكل ما تقع عليه يداها فتجذب الاشياء وتخدش وتقلع الشعر ، وتبكي وتضحك ، ولم تكن لتنام مع أن الامعاء عولجت بالمسهلات ولم تخرج شيئا . وكانت تشرب شيئا يسيرا لان المساعدين الملازمين يشيرون عليها بذلك . وكان البول رقيقا قليلا والحرارة قليلة الارتفاع في اللمس، والبرودة بادية في الاطراف . وفي اليوم الرابع عشر تنفس خفيف وعميق في فترات طويلة ثم قصيرة بعد قليل(٥) » .

ان هذا التنفس الموصوف في السطور الاخيرة يعرف اليوم (بتنفس تشين ستوك Sheyn Stokes Respiration) نسبة الى طبيبين من دبلن(٦) ويعرف هذا كذلك بالنبض المتحول كما ذكرنا من قبل .

وهذه مشاهدة اخرى : « كانت فاتيوسا Phattusa في أبديرا Abedera مديرة للشؤون المنزلية في بيت فيتياس Phytheas ورزقت أولادا ، ولكن زوجها هجرها ، فتوقف حيضها مدة طويلة ثم أصابها الم في المفاصل وظهرت في مواضع الالم بقع حمر ، وفي هذه الحال بدأ جسمها يتخذ مظاهر أجسام الرجال فجلّله الشعر ونبتت لحيتها وخشن صوتها ولم يعد اليها حيضها بالرغم من كل ما بذل في سبيل ذلك من جهد وأدركتها الوفاة بعد وقت طويل . وجرى مثل ذلك لنانو Nanno زوجة جرجيبوس Gorgippos في تاسوس . واتفقت آراء الاطباء الذين حدثتهم في الموضوع على أن الامل الوحيد لارجاع طبيعتها النسائية اليها انما هو في أن يعود الحيض الى مجراه الطبيعي ، لكن جهودهم في هذا السبيل ضاعت وماتت المرأة على الاثر(٧) » .

وهذه مشاهدة سريرية(٨) اخرى دونها ابقراط في كتابه الاوبئة (الاول) وهي الثانية من بين اربع عشرة مشاهدة سريرية أوردها في الكتاب المذكور .

« كان سيلنسوس (Silensus) يقيم في الشارع العريض بجوار يوالسيداس Eualcidas ، وقد اصيب بحمى على أثر الاجهاد وادمان الشرب وممارسة الرياضة في غير الوقت الملائم . بدأ يشعر أولا بألم في الخاصرة مصحوب بثقل في الرأس وصلابة في العنق . وفي اليوم الاول القت الامعاء

---

(٤) انظر كتاب مقدمة تاريخ العلم لجورج سارطون ترجمة لفيف من العلماء/دار الكتب بمصر/جـ٢/ص٢٢٥ .

(٥) انظر تاريخ العلم لجورج سارطون /حـ٢/ص ٢٤١ .
(٦) جان تشين (١٧٧٧ — ١٨٣٦م) طبيب من دبلن وصف هذا النبض في التقرير الثاني من تقارير مستشفى دبلن (ص ٢١٦) (عام ١٨٨١م) ووصف وليم ستوك (١٨٠٤ — ١٨٧٨م) حالات اخرى عام (١٨٤٦م) .
(٧) انظر ص ٢٨٠ — ص ٢٨١ / تاريخ العلم لجورج سارطون).
(٨) انظر ص ٢٧٣/نفس المصدر .

بمقدار وافر من الصفراء الخالية من العناصر الغريبة فاقعة اللون وافرة الزبد ، والبول أسود ، فيه رواسب سوداء ، ويصحب ذلك عطش وجفاف في اللسان وسهاد في الليل .

اليوم الثاني : الحمى حادة والغائط أوفر مقدارا وأقل كثافة وفيه مخاط وزبد ، والبول أسود ، والليلة مزعجة يتخللها شرود طفيف .

اليوم الثالث : هياج عام ، انكماش مستطيل في منطقة الشراسيف ، ارتخاء فيما دون ذلك ممتد على الجانبين حتى السرة ، الغائط مائع ، البول معتكر وقاتم ، سهاد في الليل ، شرود كثير ، ضحك وغناء ، عجز عن ضبط النفس .

اليوم الرابع : الاعراض نفسها .

اليوم الخامس : الغائط خال من العناصر الغريبة ، صفراوي أملس ودبق كالدهن . البول رقيق شفاف ، فترات من الوعي .

اليوم السادس : عرق طفيف حول الرأس . الاطراف باردة ولونها ضارب الى الزرقة ، تقلب كثير ، الامعاء لم تفرز شيئا ، البول محتبس ، الحمى حادة ،

اليوم السابع : انقطاع عن الكلام ، الاطراف لا يعود اليها الدفء ، البول لا يجري .

اليوم الثامن : عرق بارد يجلل الرأس ، بقع حمراء يعلوها العرق ، وهي صغيرة مستديرة كأنها حب الصبا ، استمرار ظهورها دون أن تخمد ، تفرز الامعاء على اثر ملين خفيف مقدارا كبيرا من غائط صلب رقيق غير مهضوم مصحوب بألم . البول مؤلم ومهيج ، الاطراف تستعيد شيئا من الدفء ، النوم متقطع ، غياب الوعي ، انقطاع عن الكلام ، البول رقيق شفاف .

اليوم التاسع : الاعراض نفسها .

اليوم العاشر : توقف عن الشرب ، غيبوبة ، نوم متقطع ، الغائط كما هو ، دفعةغزيرة من بول كثيف ترك بعد الاستقرار راسبا طحينيا أبيض ، تعود الاطراف فتبرد .

اليوم العاشر : الوفاة

كانت حركة التنفس في هذه الحال ، من أول الامر ، بطيئة والتنفس عميقا ، وكان النبض في منطقة الشراسيف متواصلا . وعمر المريض حوالي عشرين سنة » .

الرازي والمشاهدات السريرية :

لم تصلنا بعد ابقراط وثائق سريرية (اكلينيكية) تستند على حقائق علمية الى أن ظهر الرازي الطبيب الكيمياوي(٩) والفيلسوف العربي الشهير الذي ولد في الري عام (٢٥٠ هـ = ٨٦٤ م) حيث تعمق على ما يظهر في الرياضيات والفلسفة والفلك والادب ولعله درس في شبابه الكيمياء ولم ينصرف الى الطب الا في سن عالية حيث أصبح فيما بعد اشهر طبيب في زمانه .

عاش ببغداد حاضرة الخلافة العباسية وفيها صنّف معظم كتبه ، وفي بيمارستانها أجرى دراساته السريرية . هذا وفي الفترة الزمنية ما بين ابقراط والرازي ظهر جالينوس Galenos (١٣٠ — ٢١٨م) ، الذي دون بعض القصص التي تدور حول علاج المرضى وهي في روعتها وقيمتها العلمية دون مشاهدات ابقراط السريرية بكثيرذلك لان جالينوس لم يكن ليهتم في نشر الحقيقة اهتمام ابقراط بها . فلنترك جالينوس ولنبحث في مشاهدات الرازي الطبية التي جرى فيها على مجرى ابقراط في تحري الحقيقة ونشرها ، وبالحق ان مشاهدات الرازي الطبية ما هي — من وجهة النظر التاريخية العلمية — الا حلقة متممة لحلقة ابقراط وتالية لها في سلسلة تأريخ الوثائق السريرية (الاكلينيكية) .

جاء في فهرستكتب الرازي للبيروني المخطوط الموجود (بليدن) والذي نشر بعض فقراته رسكا Ruska كما نشر النص العربي كاملا عام ١٩٣٦ المستشرق الالماني (بول كراوس) ... « ومن مصنفات الرازي قصص وحكايات المرضى »، وقد نشرت مجلة ISIS (في سبتمبر = ايلول، عام ١٩٣٥/العدد ٦٦/المجلد ٢٣) هذا المصنف نقلا عن النسخة المحفوظة في خزانة كتب بودليان في اكسفورد تحت حرف مارش (١٥٦) .

ان رسالة « قصص وحكايات المرضى » تحتوي على (٣٤) مشاهدة سريرية منها هذه المشاهدة : .. « جاءني رجل قد تقيأ بعقب سكر مفرط قدر رطلين من الدم فوجدت عينيه محمرتين وبدنه ممتلئا ففصدته وأمرته بلزوم القوابض فصح » لقد تبين لي بأن المريض المذكور كان مصابا بتشمع الكبد Hepatic Cirrhosis والعوارض التي ذكرها الرازي كانت نتيجة لهذه الاصابة .

---

(٩) انظر دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) في مادة الرازي ص ٤٥١ المجلد ٩ .

وهذه مشاهدة اخرى من رسالة قصص وحكايات المرضى للرازي « جاءنا الشيخ المسلول ومازال ينفث دما كثيرا مدة طويلة ثم ان الامر اشتد به فسقي بنادق مانعه من السعال فخف عليه كل ما تداوى به أياما ثم مات . ولم أكن متفقدا لحاله في هذه الايام ، فينبغي ان يمتنع عن (الادوية) المانعة للنفث الا حيث ينحدر ما به من الراس » .

اقول بأن هذه المشاهدة عن مصاب بالتدرن الرئوي Pulmonary Tuberculosis وما اشار اليه في اخر المشاهدة يشير الى ان سبب الوفاة كان أعطاء الدواء المانع للسعال الذي أدى الى انسداد المجاري التنفسية بالمفرزات القصبية الرئوية والدم النازف .

ويقول الرازي في المشاهدة الرابعة من (قصص وحكايات المرضى) « جاءني رجل يشكو الّي خفقان فؤاده ، فوضع يدي على ثديه اليسار ليريني باسليقه فاذا شريانه ينبض في نابض العضد نبضا أعظم ما يكون ظاهر الحس جدا يشيل اللحم حتى يعلو وينخفض دائما شيلا قويا ظاهرا : وزعم أنه قصد الباسليق فلم ينتفع به وانه اذا أكل أشياء حارة نفعته ، فتحيرت في أمره مدة ثم اشرت عليه بعد أن بان لي ، بدواء المسك . وقدرت في هذا الرجل أن حاله في النبض حال اصحاب الربو في التنفس . فأن هؤلاء على عظم انبساط صدورهم ما يدخلها من الهواء الا قليل »

شخص هذه الحالة الدكتور مايرهوف المستشرق الالماني الشهير بانها حالة (قلس الابهر) Aortic Regurgitation وأنا ارىبأنها اشبه بحالة Aortic Aneurism أي « أم الدم الابهرية » ، وحالة الباسليق قد تكون (ام الدم = Aneurism) أيضا .

ان المهم في هذه المشاهدة هو ملاحظة الرازي الدقيقة وفهمه لحال الدم في الاورام الدموية اذ يقول ... فالشريان مملوء بالدم ، ولكن لا يدخله دم كثير ، كحال أصحاب الربو ، صدورهم مملوءة بالهواء ، ومع ذلك لا يدخلها من الهواء الا القليل . وهو تعليل وتحليل مبتكر فيه من التفكير الفلسفي الشيء الكثير ذلك الذي يتخذه الطبيب الفيلسوف في العصور الوسطى عندما تعوزه الوسائل التشخيصية المخبرية والآلية المتوفرة لدينا الان .

ويذكر الرازي المشاهدة التاسعة فيقول ...

« كان بخالد الطبري علّة حارة من تعب أصابه فسقيته ماء الشعير ونحوه حتى طفأت بعض الانطفاء فهاج به وجع في ناحية الخاصرة والحالب فتوهم الاطباء انه قولنج وارادوا أن يسقوه الجوارشنات(١٠) الحارة لانهم قدروا ماء الشعير اضر به على انه قد كان بمعدته بقية من العلة الحارة فجسست الموضع فوجدته حارا صلبا ثم سألته هل يحس فيه بضربان فقال شد ما ، وحدست أن به في تلك الناحية ورم حار ففصدته الابطين واخرجت له قريبا من مائتي درهم في مرة ثم سقيته ماء عنب الثعلب < Fox Grape > والهندبا < Endive > ولب الخيار أياما فبرؤ حتى حين فصدته خف ما به يومه ذلك وكان حدسي ان مادة العلة طفؤ بعضها وانتقل بعضها الى ذلك الموضع لانه لم يكن فيها استفراغ ظاهر » .

أقول : لعل هذه الحالة حالة زائدة Appendicitis وورم حولها كما يحدث كثيرا في التهاب الزائدة ، ثم انصرف الورم أو انفجر في الامعاء (دون استفراغ ظاهر) .

وهذه مشاهدة اخرى هي المشاهدة الثالثة في سلسلة مشاهدات الرازي في قصص وحكايات أدونها لطرافتها . قال الرازي ...

« قصة بن عمرويه ــ كان هذا رجلا مستعدا للسرسام(١١) جدا وكان قد أصابه قبل قدومي سرسام فتخلص منه بان مال الفضل الى اذنه فتولد فيها نواصير وكان قد فصد في ابتداء هذه ، فأزمنت به هذه المدة في اذنه بسوء علاج الاطباء فلما انعقدت المدة بعضها على بعض في صماخه حدث ذلك كما نفعله نحن بالفصد ليخرج الخراج في أصل الاذن اذا ازمنت قرحة الاذن . فخرج الخراج في أصل اذنه فصلح اذنه بعلاج في آخر الامر ، ثم انه ترك فيه بقايا من الخلط الرديء لانه لم ينق من مرضه الاول باستفراغ قوي لكي تميل المادة الى الاذن فقط . فأكل رؤوسا وأفرط في العنب فهاجت به حمى لازمته وغثي وكرب ويبس الطبيعة فسقى الفواكه والاشياء اللينة فتقيأها ، وصرت اليه في اليوم الثالث فاذا قد هاج به صداع شديد وانحراف عن الضوء ودموع كثيرة وحمرة في العين ففصدته ولم اخرج كثيرا من الدم بسبب العامة . وعزمت على انني الين طبيعته من غد فخف اكثر ما به يومه ذلك واني كنت أخاف أن يسرسم ثم اني لم أسقه دواء قويا يسهله للتوقف ايضا لا لغيره وسقيته الخيار شمبر < Pudding Pipetree > ونحوه فلم يقمه

(١٠) الجوارشنات : لفظة فارسية ، جمع كوارش . والكوارش نوع من الادوية تصنع من السكر والافاوية وقد تصبغ بالاحمر . عربيتها هاضوم .

(١١) سرسام كلمة فارسية معناها التهاب الراس .

البتة وأمرت أن يحقن ثلاثة ايام ولم أره في هـذه الايام فرجعت وقد غلظ عليه جدا وخلط وكان الماء اشقر والوجه منتفخا فأردت ان أفجر دما من انفه فتوقفت أيضا من أجل العامة والرعاع لانه لم يكن قبلي طبيب يرجع اليه بتة ، فلم يكن عندي فيه الا ماء الشعير فسقيته ذلك طمعا في أن يلين وامرته أن يسقى ماء القـرع ولعاب البزرقطونـة < Flea-Wort > (١٢) فقصـر في ذلك كلـه .

فلما كان في اليوم الرابع من هـذا اليوم غلظ أمـره وظهرت العلامات الرديئة ، وصفرت احدى عينيه، وكان لسانه شديد السواد والخشونة ، ومات يومه ذلك في الوقت الذي انذرت بموته . وكان الجهال من الاطباء يتوهمون انه قد حدثت به لقوة من رطوبة لشدة صفر العين اليمنى ولتشنج هذه الناحية»

لقد شخص هذه المشاهدة السريرية المستشرق الالماني الدكتور مايرهوف بأنها « التهـاب في الاذن تال لندات السحايا

« Otitis Following By Meningitis

أقول بأن الرازي في هذه المشاهدة كان جيد الوصف دقيقه . الا أن قوله بأنه كان يود أن يعالج المريض ولكنه لم يستطع ذلك لخوفه من العامـة والرعاع ... فقول مرفوض اذ ليس على الطبيب ان يتراجع امام الراي العام طالما اقتنع بان مداخلته الطبية او الجراحية تنقذ المريض من خطر محقق أو موت محتوم ، لان هدف الطبيب الاسـمى هو العلم الذي هو في خدمة الانسانية دائما في كل زمان ومكان .. ومع ذلك فانه بأمكاننا التماس العـذر للرازي ان استطعنا ان نسبر غور الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك ، فلعل الراي العـام كان قاسيا لا يرحم الطبيب ان اقدم على مداخلة طبية أو جراحية ففشل ، واضيف الى هذا قائلا بأن الرازي ما كان بامكانه انقاذ حياة المريض حتى لو لم يخش العامة والرعاع ، لبدائية الوسائل التي كانت تحت يده جراحية كانت أم دوائية .

وبعد : فان هذه الحالة هي حالة التهاب الاذن Otitis ادت الى نواصير (النواصير جمع ناصور Fistula < خلف الاذن ، وانتهت بخراج خارج الام الجافيه < Pachymeninges > أدى الى المـوت .

لاشك بأننا من خلال هذه المشاهدة نلاحظ براعـة الرازي في الطب السـريري والتشخيص الطبي ونلمس روحه العلمية ودقته الوصفية وقدرته المتميزة في المقارنة والاستنتاج ، وتحمله للمسؤولية في حالة وفاة من باشر معالجته ، وخدمتـه لتاريخ الطب بتدوينه هذه المشاهدات ، والرازي هـذا شأنه عندما يدون مشاهداته الطبية اذ يحلق الى اعلى المستويات التي يتبوءها العالم الطبيب ، ذلك عندما يكون بعيدا عن النظريات اليونانيـة المرتكزه على الاخلاط والامزجة . وقد وصف جرونيباوم في كتابه حضارة الاسلام طب الرازي بقوله « لقد اظهر الرازي دقة عظيمة في ملاحظاته للاعراض ووصفها، وكان الرازي يتناول الطب على صورة علمية حقا » .

وقال (هانز هينرس شيد) في كتابه (روح الحضارة العربية) « وثمة مفكر ذو مميزات خاصة ابرز في الاتجاه العلمي والتوجيه الفلسفي الا وهـو الرازي الذي يعد بحق أكبر طبيب بين المسلمين ، فقد كان يعني مستعينا بمركزه مديرا لبيمارستان في بغداد بالملاحظات الاكلينيكية ويصف تجارب صيدلية دواء للمرضى » .

وبعد : فانه لم تستأنف حركة تدوين المشاهدات السـريرية من بعـد الرازي الى ان ظهر انطونيو بنيفيتي الفلورنسي المتوفى عام (١٥٠٢م) الذي الف كتابا صغير الحجم وصف فيه عملية من عمليات التشريح وبعض الحالات السريرية ، وقد طبـع الكتاب عـام (١٥٠٧م وعـام ١٥٢١م و ١٥٢٨م و ١٥٢٩م) . أما الفترة بين بنيفيتي وبين الرازي التي تبلغ ما يقرب من ستة قرون فلا نجد فيها الا النزر اليسير مما خلفته العصور الوسطى في نظام الاكل Regimina والارشادات الصحية Consitia أما بعد انطونيو بنيفيتي فقد استقام البحث العلمي وشاع تدوين الوثائق الاكلينيكية بين رواد العلم من الاطبـاء .

اننا في هذا البحث كشفنا الغطاء عن جـزء من الحبل السري الذي كان يربط الطب العربي بالطب الاغريقي ــ اضافة الى اكتشافنا الحلقة المفقـودة في تأريخ المشاهدات الطبية (من أبي الطب الاغريقي (ابقراط) الى أمام الطب العربي (الرازي) ــ اذ ان اغفال الطب الاغريقي سيكون معناه التنازل عن فهم التاريخ العام للطب بالكلية ، وعلى الاخص تأريـخ الطب العربي ، وبينا كـذلك ــ بشـكل لا يقبل الانكار ــ دور الطب العربي في سلسلة تاريخ الطب في العالم ذلك الدور الذي سيثمنه من أوتي الحظ الاوفى من فضيلة العدالة في اعطاء الاحكام وكان على درجة كافية من الاطلاع على الطب وتأريخه منذ أن دونت علومه وحتى اليوم .

(١٢) ان ماهو مكتوب بين عارضتين هكذا < > هو من وضعي.